فلسفة الإنسان والحضارة عند مالك بن نبي من خلال الدراسات المعاصرة. ـ التأصيل والأبعاد ـ

أ. محمد الشافي

جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب.

chafi.med1975@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 02/ 11/ 2018 تاريخ القبول: 18/ 12/ 2018 تاريخ: النشر: 30/ 01/ 2019

الملخص:

يتناول هذا البحث مناقشة موضـــوع: «فلسفة الإنسان والحضارة عند مالك بن نبي من خلال الدراسات المعاصرة – التأصيل والأبعاد – » فقد أصل رحمه الله لمفهوم الإنسان ومشكلات الحضارة والظاهرة الإستعمارية انطلاقا من رؤية فلسفية حضارية شاملة ومتكاملة، ذات بعد أخلاقي قوامها روح الإسلام وفعالية الغرب. فقد اعتبر مالك بن نبي أن الإنسان هو المحور الذي يدور عليه الواقع منه المبدأ وإليه ينتهي، وأنه مقياس الحضارة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الإضرار به، كما أن له إرادة حرة اختص بها انطلاقا من التكريم الإلهي له، منتقدا بذلك النظرة الغربية لمفهوم الإنسان والحضارة، أمام الصراع الفكري القائم بين اتجاهات الفكر المادي والديانات السماوية في أوربا، الشيء الذي جعل الحضارة الغربية ذات البعد الواحد تتنحى

عن المسار الفطري للإنسانية، رغم ما قدمته من خدمات، فقد عالجت قضايا الجهل والجوع والمرض ببلادهـا، وتصدقت ببعض منجزاتها على البشريـة؛ بعد أن امتصت ثرواتها البـاطنيـة والظاهرية في البلاد التي استعمرها أربابها وقادتها.

الكلمات المفتاحية: فلسفة؛ إنسان؛ حضارة؛ القابلية للاستعمار؛ مالك بن نبي.

***Abstract*:**

The present study deals with the topic of "The philosophy of man and civilization in Malik bin Nabi through contemporary studies - rooting and dimensions." Malik bin Nabi, may Allah have mercy on him, came up with the concept of man and civilization from a comprehensive and integrated philosophical vision, which is based on an Islamic moral dimension and the effectiveness of the West. He, therefore, considers man as the core element on which reality is based. Man is the source of the principle as well as its target and criterion. The goodness and corruption of civilization are measured by the benefit or harm caused to man since the latter has a free will that is specific to him from a divine recognition. Malik bin Nabi criticizes the Western view of both man and civilization in relation to the intellectual clash between the trends of materialistic thought and divine religions in Europe. He also addresses the issue of colonialism and the peoples' readiness to accept it, criticizing the Western civilization, which has gone far away from the human nature. This is also supported by the testimony of the great Western thinkers despite their countries' services fighting ignorance, starvation and illnesses. Humanity has also benefited from the progress achieved by the West, which exploited all resources of its colonies.

Keyword* : *Philosophy, Man, Civilisation, Susceptibility to colonialism, Malik Bin Nabi

مقدمة:

عرف العالم الإسلامي محطات عصيبة، رسمت ملامح الواقع العربي المعاصر بشتى مستوياته؛ فقد شهد القرن العشرون[1] إحدى المحطات التاريخية التي آذنت بتعطيل الدور الحضاري لـ «**الأمة القطب**» وفيه تعرضت هذه الأمة لحرب ضارية على إنسانها وترابها وأفكارها وقيمها المستقلة، كانت قمة التدافع الذي أثر على الخريطة الجغرافية والسياسية والثقافية للعالم الإسلامي؛ نقصد الظاهرة الاستعمارية.

في هذا الظرف العصيب ظهر المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905 – 1973م.) الذي يدرجه العديد من الباحثين من أقطاب السلفية الجديد من أمثال محمد المبارك،[2] وأبي الأعلى المودودي،[3] وعلال الفاسي،[4] على أنها المذهب الذي يمثل في العمق الفكر الإسلامي و« نقطة البداية في هذا الفكر هي الثورة على المجتمع الفاسد، وتحرير العقل من سيطرة أي طغيان ينوبه ويلقي بأصحابه في أحضان المستغلين[5]». وهو فكر رفيع يستطيع تحرير صاحبه من القيود التي تحيط به من جميع الجهات، لأن مبدأ الحرية يعلو على كل المبادئ، ولا «قيمة لهذه الحرية إذا لم يكن لها الحق في أن تظهر للناس».[6]

وهذه المرجعية الفكرية المذهبية "لا يتردد علال الفاسي في أن يسميها بوضوح: «**السلفية الجديدة**» التي هي في اعتقاده، جزء من حركة اليقظة والتحرر"[7]. إنه الفكر الإسلامي الثوري المعتمد على العقل لتحرير الإنسان من التخلف؛ بحيث أن القيمة المرجعية لهذه السلفية الجديدة بتفاصيلها النظرية، ودقائقها المعرفية في الحديث وفي الفقه وأصوله وفي الشريعة ومقاصدها وفي علم الكلام والفلسفة، تؤدي إلى اعتبار الإنسان هو المبدأ والمنتهى، هو المنطلق والغاية، فلا يحق لأحد أن يستعبده أو يفرض عليه رأيا سوى ما هومقتنع به، إنه مسؤول أمام واحد أحد هو الله.

من هذا المنظور جاءت فكرة الموضوع لتناقش هذا التصور المتميز لمفكر عايش حضارتين مختلفتين هما: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية؛ فكيف يرى مالك بن نبي قضية الإنسان

والحضارة من منظور فلسفي من خلال الدراسات المعاصرة ؟ ولماذا يعتبر الإنسان أهم عنصر في معادلة الحضارة ؟ وكيف أصل لمفهوم الظاهرة الاستعمارية والقابلية للاستعمار في بعديها الديني والحضاري لدى الشعوب؟ سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات اعتمادا على عرض أربعة محاور رئيسية:

أولا : مالك بن نبي وفلسفة الإنسان:

إن الإنسان ببشريته هو المحور الذي عليه يدور الواقع، منه يبدأ وإليه ينتهي، ولا يمكن أن نتكلم عن واقع بدون إنسان أو إنسان بدون واقع، وذلك لعلاقة التحكم بين الطرفين ومن كليهما، فيتكيف الإنسان معه أو يكيفه طبقا لحاجياته ومقتضيات التشريع، بما وهبه الله تعالى من استعدادات فطرية تختلف من إنسان إلى آخر، حسب طبعه ومزاجه وخصائصه النفسية.

إن (إنسان) مالك بن نبي جزء أساس من (الظاهرة القرآنية)؛ أي غاية من غايات الوحي، كما أن (الله) عنده ليس عدوا للحضارة بل ملهما لها، والصورة تكاد تكون عكسية ومنافية لما هي عليه الفلسفة والكنيسة في الغرب، فالأولى قتلت (الإله) والثانية أجهزت على (الإنسان) مما جعل مالك بن نبي ـ على شاكلة غوته ـ يأمل في حضارة إنسانية قوامها روح الإسلام وفعالية الغرب.

أ – الإنسان والحضارة الغربية :

صحيح أن الحضارة الغربية أخرجت أممها من ظلمات قرون التأخير، فعالجت قضايا الجهل والجوع والمرض في بلادها، وتصدقت عليه ببعض منجزاتها على البشرية، بعد أن امتصت ثرواتها الباطنية والظاهرية في البلاد التي استعمرها أربابها وقادتها. يقول الفيلسوف الألماني(**كانت)** معلقا على نفسية الدول الأوربية الاستعمارية: "فقد اعتبرت البلاد التي اكتشفتها كأمريكا أو بعض بلدان إفريقية بلادا مباحة لا تخص أحدا، ولم تقم وزنا لسكانها الأصليين".

نتتج عن هذا كله التبعية المطلقة، "لأنه عبر التاريخ نجد أن الشعوب المغلوبة تخضع دائما لقوانين المنتصرين."[8] لأن الحضارة الغربية تؤمن بالقوة ولا تؤمن بالحق، والقوة بدون حق تؤدي

إلى الاعتداء والتجاوز على الأمم الأخرى، والحياة للموازين العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة،كما أنها تحتوي على مغريات رهيبة وجذابة، كتشجيع الأهواء والنزاعات وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء دائما مسخ الإنسان وتغيير فطرته وحياته، ولذلك فهي بدورها تمسخ إنسانية الإنسان وتحولها إلى مجرد الحيوانية"(9). "لأنه ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة في بيئة ما إلى عوامل خارجية عنها فنهمل بذلك العوامل الداخلية، فإنه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة يكون لها سلطان على نفوس الناس إلا إذا كانت تمت إليهم بصلة، فإذا جاء عامل خارجي أيقضها ولكنه لا يخلقها خلقا"(10)

وبذلك تكون الحضارة الغربية قد تنحت عن المسار الفطري للإنسانية، وذلك من خلال شهادة كبار فلاسفتها ومفكريها(11) الذين شاهدوا وانتقدوا مسار هذه الحضارة، وتنبئوا بسقوطها(12)، على اعتبار أنها ذات البعد الواحد وبالتالي تدمر القيم الإنسانية،"حيث أصبحت النظم السياسية في مختلف الدول تفرض سيطرتها على الأفراد بل وتفرض عليهم أيضا طرقا للتفكير وسبلا للحياة الاجتماعية قد لا يرتضيها معظم هؤلاء الأفراد... حيث أصبحت الشعوب في النهاية تحت سيطرة وتوجيه الحكومات، ففي كتاب «عالم رائع جديد» يتخيل ألدوس هكسلي(13) ماسوف يحدث في المستقبل أو بعد ستة قرون حيث سيصبح العالم عالما ماديا، تختفي منه الحرية الشخصية للفرد..."تخيل أن القيم الإنسانية ستختفي، وستتغير المشاعر الإنسانية، كالفرح والحزن..بل سيصبح العالم عالما ماديا تختفي منه الحرية الشخصية والنظم الاجتماعية كالأسرة والزواج الشرعي، وسوف يتم صنع الأطفال في الأنابيب والزجاجات وتصنيفهم حسب احتياج المجتمع وستحل المواد الصناعية بدلا من المواد الطبيعية"(14).

"فعندما أتت الحرب العالمية الثانية، حطمت نهائيا وحدة أوروبا المعنوية وقداسة مبرراتها، وكان من أعمق آثارها في الناحية النفسية الأوربية، أن الاستعمار قد فقد قيمته لا من الناحية الأخلاقية لبعض الضمائر الأوربية فحسب، بل فقد قيمته الواقعية"(15). من خلال واحديه الغرب،

بمعنى الإحساس بتضخم الذات"[16]، واحتقار الشعوب الأخرى، لأن الحديث عن الحرية والديمقراطية[17] في المجتمع الغربي كان حديثا يكيل بمكيالين، ولعل مالك بن نبي في موقفه من التعالي الغربي، يكون قد تأثر ببعض آراء كل من شبنجلر و توينبي ، فشبنجلر يرفض الرأي القائل بحضارة إنسانية واحدة تسير في خط مستقيم، ينقسم إلى عهود قديمة ومتوسطة وحديثة، أو ما يشبه ذلك من أنواع الانقسام، ويعتبر هذا الرأي صادرا عن العقلية الأوروبية الغربية المحدودة ضمن أفقها المعين والمعجبة بمنجزاتها، "والتي تحصر الحضارة بذاتها، وتنصرف عن الحضارات الأخرى، وتنظر إلى تطورها، وكأنه تطور إنسانية بكاملها، وإلى عهودها كأنها أواخر مراحل التقدم أو خاتمتها"[18]. أما توينبي، فقد استبعد وانتقد عدة أحكام كادت أن تستقر في فكر مؤرخي الغرب.

فالقول بوحدة الحضارات من أجل أن تعد الحضارة الغربية أعظمها قيمة، "ليس إلا وهما راجعا إلى سيادة الحضارة الغربية الحديثة في المجالين الاقتصادي والسياسي، وهي أنانية تماثل ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار[19]، أو قدامى اليونانيين أن غيرهم من الأمم برابرة، فتقييم مؤرخي الغرب للحضارة الأوربية على أنها أسمى الحضارات، تقييم خاطئ. يقول مصطفى النشار: "إن الحوار البناء بين الحضارات إنما ينبغي أن يرتكز على فهم مشترك ومعرفة مشتركة لدى أبناء العصر الواحد. ويرتكز على مبدأ أراه ضروريا وهو مبدأ التكافؤ الحضاري الذي تتوازى في ظله الحضارات الإنسانية جميعا سواء كانت متعاصرة أو سبقت إحداها الأخرى...والواقع يقول: إنهم ينظرون نظرة دونية إلى الآخر ويعتبرونه أقل مرتبة وأقل قدرة، وينظرون إليه نظرة السيد للعبد، أو نظرة صاحب الحضارة والتقدم لمن لا يملك منها أي شيء[20]. لذلك فالحرية والديمقراطية والقيم الإنسانية التي يستخدمها الغرب داخل حضارته، مخالفة تماما، "فهو خارج الغرب يمارس الفكر الإمبراطوري كما قال مالك بن نبي، بمعنى الفكر الاستعماري، وداخل الدائرة الغربية فكر إنساني، وذلك عبر تشخيصه للعديد من الأمراض المنتشرة في الساحة الغربية منها عنصرية الغرب واحتقاره للشعوب الأخرى واستعمار الشعوب الضعيفة، وهذا يدل على مادية الغرب وعبادته للمادة (مرض التشيء والاستهلاك) بتعبير مالك بن نبي، "فالأخلاق الغربية إنما تمارس داخل بلاد

الحضارة، أما خارجها فإنسان الحضارة الغربية يتعامل مع الآخرين في نطاق الاستعمار، فليست روابطه مع أبناء المستعمرات أخلاقية"(21) كل هذا ينبئ بسقوط هذه الحضارة"(22) .

وثمة دوافع اتجهت بمالك بن نبي إلى تناول الحضارة الغربية، فهو "يرى أن المسلم الحديث مازال يجهل التاريخ الحضاري للغرب، لذلك لا يستطيع أن يعرف كيف تكونت الحضارة الغربية، وكيف أنها في طريق التحلل، لما اشتملت عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية، ولأن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة، لذلك فقد استحالت بتأثير الاستعمار والعنصرية إلى «ثقافة امبراطورية»(23). فهذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها، وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية بعامة وبالتالي بالمشكلة الإسلامية"(24).

ب- تقييم مالك بن نبي لمفهوم الإنسان داخل الحضارة الغربية:

إن المتتبع لمؤلفات مالك بن نبي يستنتج إلى أنه لا يتجه بشكل تلقائي صوب الاعتماد الكلي، والاطمئنان المباشر بنتائج التفكير الغربي حول الإنسان، فهو الخبير بحضارته، حيث مكث في أوربا أكثر من ربع قرن، يدرس ويحلل، بالإضافة إلى تكوينه المتميز من الناحية المنهجية، واستفادته من جميع ما اطلع عليه، وتوظيفه في خدمة القضية التي يعالجها، وفق ما تقتضيه الموضوعية في البحث، لكونه استوعب كل ما وجده في متناوله وعرف مناهجها ومنطلقاتها، حيث تحدث عن "فوضى العالم الغربي" الناتجة عن غياب الوازع الأخلاقي والديني، وسيطرة النزعة الآلية والمادية"(25) في توجيه المعرفة الوجهة الصحيحة.

وهذا ملحظ حسن من مالك بن نبي، إذ يمنحنا تقويما للتراث الغربي، يتجلى في المنهج الأخلاقي والديني، لأن هذا ينسحب في نتائجه على مدى ملائمة هذا الفكر لكل المجتمعات الإنسانية الأخرى، فالأخلاق لها حقيقة معنوية واحدة لكن تتفرع مفاهيمها وأنظمتها حسب كل مجتمع، فلكل مجتمع منظومته الأخلاقية التي ينظم من خلالها العلاقات بين أفكاره وإنسانه

وأشيائه، وهذا المنظور الأخلاقي يجنبنا السقوط في وهم مركزية الحضارة الغربية على المستوى القيمي والخلقي الذي قد تكون مناهج العلوم الإنسانية وسيلة من وسائل ترويجه وتسويقه باسم الحياد العلمي وباسم الحداثة، "لأنه لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها"[26] .

يقول مالك بن نبي: " ليس من شيء أن الإنسان هو مقياس الحضارة، لأنه أثمن ما في الحياة، فصلاح الحضارة وفسادها يقاسان بمدى النفع أو الإضرار به. وبمدى الانسجام أو التنافر معه. ليس من أحد ينكر، أن الحضارة الغربية تستغل التراب – الآن أحسن استغلال، وتستفيد من الوقت أروع استفادة. وقد أعطته – نتيجة ذلك – ركاما ترابيا ضخما لم تشهده أية حقبة تاريخية سابقة. وفي الوقت نفسه، لم يختنق الإنسان في أية حقبة تاريخية سابقة كما اختنق في عصرنا، ولم يشق الإنسان بترابه ووقته كما شقي في قرننا، ولم يتأذ الإنسان بمنجزاته كما تأذى إنسان الآلة، "فقد انحلت روابط التآزر العائلي والاجتماعي دون أن تحل معها روابط جديدة. فالإنسان العصري وحيد وقلق. إنه حر، لكنه خائف من هذه الحرية. هو يعيش – كما قال عالم الاجتماع الفرنسي الشهيردوركايم في حالة من عدم الاستقرار"[27]. "

لذلك فقد واجه العالم في العصر الحديث عالما تغير فيه كل شيء. فقد طغت الفلسفات المادية المعاصرة نتيجة للصراع العنيف بين المؤسسات اللاهوتية[28] ومحاولات القعول النيرة لاقتحام قوانين المادة والكشف عن أسرارها.

وكان من الممكن أن ينتهي ذلك الصراع إلى نتائجه الطبيعية، " لو أن الكنيسة قد تنازلت عن مادتها المعرفية البشرية العتيقة، لتظهر عقليات تجديدية تقود حركة التصحيح والتنوير، كي تلتقي مع نتائج العلم، فتؤدي إلى نمو الاتجاه الحضاري المتوازن. غير أن سيطرة اليهودية"[29] على مراكز القوى الموجهة؛ السرية منها والعلنية، قلبت الصراع من داخل النصرانية نفسها إلى الصراع بين

النصرانية وبين الإنسانية والعقل الحديث، ثم إلى الصراع بين الدين عامة، وبين العلوم الإنسانية الجديدة التي قادتها «الإيديولوجيات» المادية التي حولت الإنسان إلى إله يعبد من دون الله.

فنفت بذلك كل قدرة خالقة في الوجود، واتبعتها بنفي الأديان من أساسها، ووضع الفلسفات البشرية مكانها في تفسير الوجود، وحركة المجتمع وسلوك الإنسان ، من خلال تفسيرات (كانت) الوضعية، في إيجاد دين يضعه البشر، يوضع في مكان الأديان السماوية وحتى الأرضية، وقوانين (كارل ماركس) الحتمية المزعومة التي تحصر الصراع في عالم الاقتصاد ونظام الإنتاج، وتحليلات (فرويد) النفسية التي تجعل من العقد الجنسية أساسا لكل حركة أو سلوك، ودراسات (دوركايم) التي جعلت من العقل الجمعي صانعا للسلوك الحيواني المتغير الذي لا يستقر على حال، وينقل من النقيض إلى النقيض، ومع هؤلاء جميعا ظهر (داروين) الذي حطم قدسية الإنسان بإرجاعه إلى تطور تدريجي من الحيوانات ذات الخلية الواحدة، عبر صراع قاس طويل لا يبقى فيه إلا الأصلح"[30] .

و" كانت نتائج هذه الهجمة العقلانية الإنسية المادية التي قطعت صلتها مع الهداية الربانية والفلسفات العقلية المثالية، وقواعد الأخلاق الطبيعية الفطرية، خطيرة جدا على المجتمع الإنساني."[31]

فرغم اتفاق فلاسفة العقد الاجتماعي[32] الثلاثة (هوبز وجون لوك وجان جاك روسو) على أن الإنسان عاش في بداية وجوده حياة فطرية وحرية مطلقة، لذلك أطلقوا اسم العقد الاجتماعي على الحدث الذي نقل الإنسان من حياته تلك إلى الحياة الاجتماعية المنظمة. حيث تقوم العلاقة الصحيحة في العقد الاجتماعي بين السلطة وأفراد المجتمع على ثلاث مرتكزات رئيسية هي: الحرية – والعدالة – والمساواة. لكن سرعان ما تأثر فلاسفة العقد الاجتماعي الثلاثة بالأحداث التي عاصروها، الأمر الذي جعلهم يوجهون جل فلسفتهم لمسايرة مآرب شخصية."[33]

لذلك فمالك بن نبي "يرى أن فلسفة الإنسان لا زالت في الغرب، رهينة تعابير ومصطلحات لا تسمح للذهن الغربي أن يتصور اشتراك الشعوب في صفة الإنسانية، والسعي للأخوة والتضامن."[34]

لأن الواقع الإنساني ليس منضبطا كواقع الكون، فالعنصر الروحي في تكوين الإنسان، والإرادة الحرة التي يختص بها، جعلا هذا الواقع يتصف بقدر كبير من الخفاء في العوامل والأسباب التي تنشأ عنها الظواهر والأحداث، كما يتصف بقدر كبير من الخصوصية في التفاعل كان بها غير واضح في انضباطه واطراده، وبهذا يكتسب الواقع الإنساني صفة من الغموض من جهة، وصفة من غير الاطراد في الصيرورة من جهة أخرى، وهما صفتان تجعلان منه موضوعا عصيا عن الفهم اليقيني مقارنة بالمواضيع الكونية، وقد سجل هذا المعنى أحد الفلاسفة المهتمين بالإنسان وهو ألكسيس كاريل [35] في كتابه الشهير«الإنسان ذلك المجهول».[36]

ولذلك "يقتضي هذا الوضع لواقع الإنسان أن يكون الاجتهاد في فهمه واستيعاب حقيقته مبنيا على أدب خاص وقواعد تتناسب مع طبيعته، وأن تستخدم فيه وسائط آلية للتحليل والتصنيف والرصد قائمة على أسس علمية، غير متروكة للتلقائية والعفوية، لأن الإنسان كل لا يتجزأ، كما أنه في غاية التعقيد ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعة، أو في أجزائه في وقت واحد[37]".

لذلك اتفقت كلمة الفلاسفة والحكماء العقلاء على أنه لا كمال للإنسان مطلقا، بل ولا وصول له إلى التمسك بأهداب الآداب، واقتباس أنوار الاستبصار إلا باقتفاء آداب الدين والأخذ بهديه القويم، والسلوك على صراطه المستقيم. "لأن الإنسان وإن تثقف عقله بالعلوم المادية والآداب العرفية لا تزال فيه نزعة من حب الأثرة والميل عن جادة الوسط المطلوب بين الإفراط والتفريط في الأمور؛ سيما إذا أمن اللائم وبعد عن الرقيب وانفسح له مجال التأويل، فقد يصل إلى الدرك الأسفل من هاوية الفساد وسوء الحال."[38]

فرغم استغلال الإنسان للتراب والوقت، بما فيه الكفاية فهذا لا يعطي– بالضرورة – حضارة حسب المعادلة: (إنسان+ وقت + تراب = حضارة.

لأن المجتمع الإنساني يمكنه أن يستغني وقتا عن مكتسبات الحضارة، ولكنه لا يمكنه أن يتنازل عن هذه العناصر الثلاثة التي تمثل ثروته الأولية، دون أن يتنازل في الوقت نفسه عن جوهر حياته الاجتماعية. وتلك هي القيم الخالدة، التي نجدها كلما وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء، أي في الواقع كلما تحرك رجل الفطرة، وتحركت معه حضارة في التاريخ"[39].

يقول مالك بن نبي: "ولما كان المسلم حتما متوازنا تصبح صورة المعادلة كالآتي:

إنسان مسلم = حضارة.

فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمكنه أن يحقق التوازن، لذا فإننا نستطيع أن ننقط المعادلة السابقة بالشكل التالي: (الحضارة فقط الإنسان المسلم)"[40]. "فبما أن الإنسان هو الشرط الأساسي لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني"[41] . لذلك فالإنسان إذن هو محور الفاعلية في حركة الحضارة، فعليه مدار الاختيار .

ج ـ الإنسان العقدي:

تتجلى فلسفة الإنسان عند مالك بن نبي انطلاقا من أساس غيبي، وتظهر أبعادها انطلاقا من التكريم الإلهي لآدم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [42] والطاقة الحيوية للفرد المسلم كمعادلة بيولوجية أو كمعادلة اجتماعية من خلال منظور العقيدة، أو ما يسميه مالك: «الإنسان العقدي»[43] الذي يحول العقيدة إلى أداة اجتماعية. فالدين عنده ليس في العقيدة بحد ذاتها وإنما في صقلها وتفعيلها إيجابيا، أم يتعامل معها المسلم على أنها مجرد أوراد وآيات ومسائل في الإطار النظري، أم يسعى إلى تفعيلها في عالم الواقع، أي يخلص العقلية المسلمة من أدران السكونية وعدم الحراك وعدم النشاط إلى تفعيل التوجهات القرآنية. بمعنى تحويل قيم الدين

وهو مشحذ الحضارة إلى منظومات اجتماعية ومؤسساتية. "لأن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفعاليات الحضارية، مادية وأخلاقية وروحية، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدهما ينعكس – بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى".(44)

يقول مراد هوفمان(45): "....ذلك أن المسيحي اليوم، لا يؤدي بين قداس الأحد وقداس الأحد التالي له أية فرائض تلزمه إياها الكنيسة، بل إنه يمكنه أداء قداس الأحد مساء السبت إن شاء (بالتقديم) دون الحاجة إلى رخصة تدعوه للتقديم، على العكس من ذلك نجد حياة المسلم اليومية تخضع لنظام دقيق منذ الفجر إلى العشاء، ليس هذا النظام بسبب مواقيت الصلاة وإقامتها في أوقاتها المحددة فقط، وليس ذلك بسبب تناول ما أحله الله من الطعام والشراب فحسب، بل إن الأمر أبعد من ذلك."(46)

فقد خوطب الإنسان بالدين لينفعل به في حياته انفعالا إراديا، فيصدق بما جاء به من بيان في شرح حقيقة الوجود، ومن ذلك يكون معتقده، ويجري سلوكه على حسب ما جاءت به تعاليمه العملية، وبذلك يكون شرعه في واقع حياته. "وهذا الانفعال بالدين تصديقا وسلوكا عمليا هو التدين، على معنى أنه تحمل الدين واتخاذه شرعة ومنهاجا، فالدين إذن هو التعاليم الإلهية التي خوطب بها الإنسان على وجه التكليف، والتدين هو الكسب الإنساني في الاستجابة لتلك التعاليم، وتكييف الحياة بحسبها في التصور والسلوك"(47).

لأن الحديث عن الدين الإسلامي هو حقيقة مصاغة لهدي الإنسان مطلقا من مقيدات وجوده الزمانية والمكانية، "فهي في أوامرها ونواهيها تخاطب بالتكليف كل الناس على اختلاف أوضاعهم الذاتية من التفرد والاجتماع، والقوة والضعف، والبداوة والتحضر، وعلى اختلاف مواقعهم في المكان والزمان، إنها حقيقة تكليفية عامة للناس ليس فيها تخصيص عيني ولا ظرفي إلا مستثنيات نادرة منصوص على التخصيص فيها."(48) "لأنه ما من نص جاء به النص الصريح الثابت إلا كانت

المصلحة مؤكدة فيه، وما من أمر ينهى عنه النص الصريح إلا كان فيه الضرر."(49) "فتأمل وصيته بعد ندائه فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه."(50)

فالقرآن الكريم من خلال قراءته المتجددة غير التقليدية ليس وعاء لثقافة التبرير باسم العقيدة والمقدس، إنما منهج مفتوح يستدعي باستمرار تطور آليات الحضارة والخلافة في الأرض، أما الإنسان، فقبل أن يكون عضلة وجهدا فهو فكرة وعقل وذهنية وهدف، بمعنى أنه إما أن يكون فاعلا في التاريخ محوريا في معادلة الحضارة أو كمّا ماديا مستهلكا للحضارة وعبئا عليها. يقول مالك بن نبي: "نعم المشكلة مشكلة حضارة، فالإسلام دين تمدن وتحضر"(51)، وفهمه بشكل خاطئ يؤدي إلى البعد عنه إلى الجاهلية، "وبهذه الطريقة تغيب الفكرة عن مسرح الصراع فيحل محله شرك وعبادة أوثان، تعيد استعباد الإنسان لغير الله للمادة والأشياء، والتخلص من هذه الصنمية لا يكون إلا بالثورة على الواقع، وتغيير أسس السلوك."(52) "مهتديا في ذلك بالنصوص من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، التي تؤكد أن وضع البشرية مرتبط بموقفها من الصراط المستقيم"(53)

لذلك شهدت المعرفة الغربية في العلوم الإنسانية مطلع القرن العشرين سعيا محموما لتطبيق المنهج التجريبي في حقولها، وهو ما أدى إلى معرفة مبتورة للإنسان، هذا في الوقت الذي فشلت فيه بتحقيق ذلك، فهي بهذه العملية – أعني رد الإنسان إلى الطبيعة – تقوم باختزاله وإساءة فهمه، مرجعية المادة حولت المنفعة واللذة إلى أهداف أساسية للوجود الإنساني، وهو ما يجعل عجلة الاقتصاد تتسارع نحو مبدأ "**مزيد من السلع فيه مزيد من المنفعة**" "فقد كان واطسون يؤيد المنهج النفعي عندما نصح بأنه يجب أن نشبع حاجات الإنسان ومصالحه دون الإحالة إلى الحقوق. لكن هذا يصطدم بالمشكلة النمطية للنفعية: قضية الأولويات والعدالة عندما تتعارض الحاجات مع المصالح"(54).

لأن الإطار العام الذي كان يحكم الحضارة الغربية هو «التمركز». "فإن الإنسان الوسيلة كان موجها بالأحرى نحو التنمية الخارجية (خارج ذاته)، مما يعزز من دعائم الحضارة في الاقتصاد

والتجارة والمالية والمواصلات، ويعزز من نفوذ من يتحكم في هذه الدعائم، والكل يعرف من قريب ومن بعيد كيف ساهمت الطبقة العمالية الكادحة في تنمية الاقتصاد وكوثرة المال. «وهو أمر يقضي بتحول الحاجة من أن تكون سببا للاختراع إلى أن يكون الاختراع هو مولد الحاجة. إذ ليس غريبا بعد ذلك أن يشعر المرء في العالم الغربي بتشظي أفراد المجتمع وتفكك بنائه، فالروابط الأخلاقية والقيمية باتت محكومة بفردانية مزمنة، وما بين فقدان النهايات الكلية (العلة الأولى للوجود) للمعرفة المادية وانغلاقها على المادة، وبين قيمها المفرطة في استهلاكيتها وفردانيتها دون هدف سوى اللذة ذاتها والشعور الشخصي بتحققها، وجد الإنسان الغربي نفسه قد تفكك معنويا أمام معضلة عويصة هي ما عرف بـ **"أزمة المعنى"**»[55]

يقول مالك بن نبي: "فالقضية ليست قضية آلة يمكن توفير المال بشتى الوسائل لإحضارها، بل قضية إنسان مهيئ لتوجيهها واستخدامها، وبالتالي فإن: مشكلة التجهيز، مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار، وأن المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها."[56]

خلاصة الأمر، إن مالك بن نبي يرى أن حل مشكلة الإنسان غير متوفرة في الفكر السياسي الذي يوجه حضارة الدول الكبرى، لأنه فكر مادي بفرعية : الرأسمالي والماركسي. ففي هذا الفكر الأوروبي تسود حلول أحادية الجانب، أساسها المادة؛ وما ذلك إلا لأن هذه الفلسفات لا ترى في الإنسان إلا عالم أعداد وأرقام بينما المسألة تختلف جذريا مع الإسلام الذي ينظر للإنسان من زاوية الاستخلاف في الأرض.

ثانيا ـ مالك ابن نبي وفلسفة الحضارة:

يقدم مالك بن نبي تعريفا للحضارة "حيث شبهها بالشمس التي تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى شعب آخر."[57].

أ – مفهوم الحضارة:

الحضارة عند مالك بن نبي لا توضع في مقابل البداوة، كما يذهب معظم المفكرين، "ففي ذلك طمس لمعالم البداوة التي تمثل إحدى روافد حضارة مجتمعنا العربي الإسلامي... فهي ليست مرادفة لكلمة المدينة كما يذهب إلى ذلك مؤلف كتاب « قصة الحضارة » فهي سياج حضانة للإنسان تحميه من الهمجية،كما أن الحضارة توضع في مقابل البدائية لا البداوة ، وتصبح الحضارة عنده: "مجموعة من الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل عضو من أعضائه في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"[58]. أما فيما يتعلق بكلمة "مدنية" التي يميل كثير من الباحثين استخدامها مرادفة لكلمة "الحضارة" فإنها تشير في اللغة أيضا إلى ارتباط مكاني، جاء في قولهم: "مدن بالمكان أقام به".

غير أن كلمة "الحضارة" قد ترتبط بمعان تقويمية عند بعض الباحثين أكثر مما ترتبط كلمة المدنية، فحين يقول عبد الرحمن بن خلدون: "إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره، ومؤدية لفساده.[59]" فإنه يعطي حكما تقويميا على الحضارة، "يعني بذلك أنه حين يتم للجميع كل ما يتطلع إليه من تحضر، وما يصاحب ذلك من رفاهية واسترخاء، فإن ذلك يكون مؤذنا في رأيه بختام حلقة من حلقات تاريخه. ولهذا يستخدم بن خلدون كلمة الحضارة للدلالة على صفة معينة من حياة المدنية"[60].

ومثلما يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان فيستخدمون كلمتي: "الحضارة والمدنية" مترادفتين، يميل كثير من الباحثين الغربيين إلى استخدام كلمتي: (Civilization) و(culture) بمعنى واحد. غير أن المدرسة الألمانية في علم الاجتماع "ترى أن الحضارة هي صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع، فأما مظاهر التقدم الآلي والتكنولوجي فإنه مما يتصل بمعنى المدينة . وقد تأثر بهذه التفرقة بعض الباحثين من غير الألمان فمالوا إلى القول بأن الحضارة هي ما نحن، وأما

المدنية فهي ما نستعمل، وبعبارة أخرى فإن الحضارة في رأيهم تتمثل في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات، بينما تتمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا"[61].

ب ـ الحضارة إنتاج بشري :

يرى مالك بن نبي أن الحضارة إنتاج بشري، لذا فالتخلف الذي يعيشه المسلمون ينبع في الأساس من داخلهم، ويعود إلى طبيعة تشكيل عقليتهم وشخصيتهم التي ترسبت فيها مفردات الثقافة السلبية وفرق بين المجتمع الفعال والمجتمع الغير الفعال، فاعتبر أن فاعلية المجتمع تنطلق من فاعلية الإنسان، لهذا كان يقول: إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ."

وشرط الفاعلية الأساسي عند مالك بن نبي أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه صانع التاريخ ومحركه، فالتاريخ نتائج علمية، وليس مقولات نظرية، "لأن موضوع التاريخ هو الإنسان والزمان، ومسائله أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان والزمان"[62] . ورأى أن مشكلة المسلم أنه لا يفكر ليعمل، بل يفكر ليقول ويتكلم. وقد أدى ذلك إلى ضياع الاستفادة من المال والوقت والعلم. فالعناصر الضرورية التي تتشكل منها كل الحضارات، حسب مالك بن نبي ثلاثة: «الإنسان، التراب والوقت».[63]

أما مسألة العضوية (تشبيه مراحل نمو وتطور الإنسان بالتاريخ) "فالأولى مسألة لا حرية للإنسان فيها لأنها قدرية، فكيف نشبه ما هو قدري بمسألة يستطيع الإنسان أن يعيد الكرة عن طريق التغيير الذاتي ، بحيث إن مالكا كان يعتبر أن حصار المسلم يعد أحد التحديات التي تواجهه من داخله وليس من حوله " **غير نفسك ثم غير واقعك"**، فقد يحدث في بعض الظروف التاريخية أن يفقد مجتمع ما شخصيته ويمحى من التاريخ، ومع ذلك فإن عدد أفراده قد لا يتغير في هذه الحالة، بل يحتفظ كل فرد بغريزة العيش في جماعة، وهي الغريزة التي تحدد معالم الإنسان بوصفه

كائنا اجتماعيا، وإنما أصبح الأفراد مجرد أنقاض لمجتمع بائد، أنقاض مهيأة لأن تدخل في بناء جسد اجتماعي جديد."[64]

لذلك فالإصلاح الحضاري عند مالك بن نبي ينبثق من تحديد أصل الأزمة في الأمة، وهو «التخلف» ويحدد علاجها في «النهضة» الذي يعتبر رائد هذا المشروع، حيث تشكل المسألة الحضارية حجر الزاوية في مشروعه، ويؤكد ذلك النظرة التاريخية للحظة إشراق الحضارة الإسلامية، وخمول الحضارة الغربية في السابق، ووجود الحالة المفارقة والتغير في الواقع المعاصر بصعود الحضارة الغربية، وخمول الحضارة الإسلامية، وهذا يدل على أن الحضارة هي المؤثر الذي ينتج الأشياء، ويحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية ومستوى التقدم العلمي والصناعي."[65]

يربط مالك ابن نبي كافة قضايا الإصلاح نقدا وتأصيلا بالمسألة الحضارية التي تبدأ دورتها بالتفاعل بين أركانها الأساسية، وهي الإنسان والوقت والتراب، ويؤدي الدين فيها دورا محوريا، حيث تبدأ دورة الروح فتنتقل إلى مرحلة الإنتاج والعمل والإنجاز التي تمثل جوهرة الفكرة الدينية.

ثالثا- مفهوم مصطلح الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب:

اختلف مالك ابن نبي حول مشكلة الحضارة مع بعض المفكرين، وذلك نتيجة لاختلاف تحديد كل مفكر لمفهوم الحضارة، فسيد قطب حينما أعلن ذات مرة أنه سينشر كتابا في خمسينيات القرن الماضي تحت عنوان: "**نحو مجتمع إسلامي متحضر**"[66] ثم عاد لينشر الكتاب المذكور بإسقاط كلمة متحضر من عنوانه وليجعله "نحو مجتمع إسلامي" فقط، أثار ذلك انتباه مالك ابن نبي الذي سارع للتعليق قائلا: "إن هذا الموقف يكشف عن عقدة بعض المفكرين المسلمين إزاء "الغير" المتفوق، وهذه العقدة تدفعهم إلى إنكار نقائص"الذات" واللجوء إلى مدحها مدحا عميقا. ويتجلى ذلك في اندفاع المفكر إلى تمويه طبيعة المشكلات وإدخال بعض التحريف اللاشعوري في معالجته للقضايا المطروحة، فسيد قطب كما يرى مالك ابن نبي قد استبعد مشكلة العالم الإسلامي الحاسمة

من بحثه حتى اعتقد، وحملها على الاعتقاد، بأن المجتمع الإسلامي هو على وجه التحديد مجتمع " متمدن" فانجر بذلك تحت تأثير (حالة إخلاص) إلى موقف فيه من المدح اللامجدي للذات أكثر مما فيه من المواجهة الموضوعية للمشكلة الراهنة"[67]. فسيد قطب في لفظ متحضر كان يميل التركيز على الجانب العقدي على اعتبار أن المجتمع المسلم بطبيعته متحضرا وليس بحاجة إلى زيادة مصطلح الحضارة على اعتبار أن المجتمع المسلم بطبيعته يملك مقومات الحضارة فلا داعي لنا أن نضيف كلمة حضارة وهي كلمة معاصرة ومنتشرة في العصر الحديث على ألسنة المفكرين والمثقفين لتقريب المفاهيم إلى العقل المسلم، أمام الحضارة الغربية المكتسحة والمؤثرة"[68].

لذلك فهناك فرق بين وجهتي نظر متكاملتين، وليستا متناقضتين، «فسيد قطب»"يركز في منهجه الفكري على الجوانب الذاتية في معالجته لمشكلة الحضارة، حيث يعتبر أن الشروط التي صنعت الجيل القرآني الفريد وحاكمية المجتمع لله وحده في كل الأمور، ذلك هو المنطلق، ولكنه في نفس الوقت لم يغفل الشروط الموضوعية اللازمة لبناء الأمة أو الحضارة الإسلامية، ومالك بن نبي يركز في منهجه الفكري على الجوانب الموضوعية في معالجته لمشكلة الحضارة، وذلك بحكم تكوينه الثقافي والمنهجي، هذا مع تأكيده على الدفعة القرآنية الحية ودور الفكرة الدينية في المسار الحضاري."[69]

إن المتتبع لكتابات "مالك بن نبي" سيصل إلى أن نقده المذكور هو في حقيقته راجع إلى التصور الخاص الذي يخلعه على مفهوم "الحضارة" والذي يصوغه على أساس أنها "فعل تركيبي" قوامه (الإنسان، التراب، الزمن): الإنسان باعتباره كائنا احتماعيا، والتراب بخضوعه لضرورات فنية معينة، والزمن بإدماجه ضمن العمليات الاقتصادية والصناعية والاجتماعية.

ومن هذه العناصر الثلاثة تتحقق الحضارة .وعلى هذا الأساس اعتبر الحضارة "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم المساعدة الضرورية لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة وحتى الشيخوخة،، وفي كل مناحي الحياة."[70]

فتحديد معنى الحضارة على هذا النحو هو في حقيقته وضعها في إطار يغلب عليه الجانب المادي والفني والنفعي التي تختص به "المدنية" التي يرادف معناها مصطلح (Civilization) في بعض المراجع والموسوعات الأوربية بحسبانها معنى يشير إلى المستوى الوسيلي والحياتي والتكنولوجي الميسر لمقومات حياة ذات مستوى مرتفع.

لقد كان هم مالك بن نبي أن يتجاوز مجتمعه وضعه التخلفي العام، ويتوق إلى أن يرى هذا المجتمع وقد استطاع أن يحوز مقومات تشكيل الأطر الوسيلية والمدنية، بما يضمن له التطور والنمو المعاشيين، وذلك على غرار ماكان يراه في المجتمع الغربي الذي عاش مدنيته، وأحس بالبون الشاسع بينه وبين ما عليه الواقع في مجتمعه الجزائري، ففي بداية وجوده في باريس ساقه رجلان ذات يوم إلى متحف الفنون والصناعات، حيث رأى الجانب التقني للحضارة ، ورأى جانب الفعالية عند الفرد في الغرب (والفرنسي ما إن يخرج من مكتبه أو مصرفه حتى يصير في بيته نجارا وحدادا وكهربائيا، ولا ريب أن الأطفال ينشؤون في هذا الاتجاه، وفي الجزائر لا يجد رجل الريف في بيته مطرقة ولا مسمارا ليصلح محراثه، بينما يبتلى رجل المدينة بلعب(الدمينو)"[71]، ورغم كل هذا فمالك بن نبي لم يقف موقف المهزوم من داخله حينما وجد نفسه في خضم الحضارة الغربية، لكونه أخذ حظا وافرا من الثقافة الإسلامية والغربية وهو بالتالي يؤمن بضرورة التغيير من الداخل، عبر إصلاح الفرد ثم المجتمع.

رابعا- مالك ابن نبي ومصطلح القابلية للاستعمار:

لقد أبدع مالك ابن نبي رحمه الله في دراسة الاستعمار وكون حوله نظرية عميقة، والتي استبطنها من مختبر كبير هو المجتمع الجزائري الذي عايش التجربة المرة والقاسية جراء الاستعمار الفرنسي، حيث مارس مالك بن نبي دور رجل المختبر، بتوسع وتعمق في دراسة ظاهرة الاستعمار في أطوار تاريخية متباينة، وأنماط اجتماعية مختلفة. النمط الأول هو المجتمع الجزائري، والنمط الثاني المجتمع

الفرنسي الذي مثل له دراسة الاستعمار من داخل بيئته وعلى أرضه، مما جعله يخرج بفكرة طالما رددها كثيرا في مؤلفاته وركز عليها وهي: «القابلية للاستعمار»[72].

أ ـ مفهوم القابلية للاستعمار:

هذا المصطلح من أشهر المصطلحات والمفاهيم التي أطلقها مالك ابن نبي،"وهو يعني غالبا التخلف الحضاري الذي أصاب المسلمين في العصور الأخيرة، مما يجعل عدوهم يتغلب عليهم ويستعمرهم ويفرض عليهم مدنيته... أمام تقاعس المسلمين عن أداء واجبهم وقلة في العلم والمعرفة أمام خداع المستعمر، مما يجعله يسير بلدا كبيرا بعدد قليل من الجنود، وتوهم للقوة الخارقة عند العدو، مما يدعو للاستكانة له، هذا الوضع المتخلف هو الذي يسهل سيطرة الغزاة"[73]. فالفكرة المركزية في نظرية مالك بن نبي حول الظاهرة الاستعمارية، هي (فكرة القابلية للاستعمار)، ويؤسس هذه الفكرة على قاعدة أن الاستعمار نتيجة وليس سببا، يعكس ما طرحه البعض في تفسير مشكلة التخلف في العالم الإسلامي، على أساس أن الاستعمار هو السبب الأول والأصل والأساس. ويعتقد أن خطورة الاستعمار في ما يعرفه بـ "المعامل " ومن هنا تبدأ قضية الاستعمار تهمنا، حيث إنه يفرض على حياة الفرد عاملا سلبيا نسميه بالمصطلح الرياضي (المعامل) الاستعماري (Conficient) ولذلك المعامل تاريخه في سياسة الاستعمار"[74]. ولقد رأينا هذا المعامل يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها، يؤثر فيه وهو طفل، إذ لا يمده المجتمع بما لا يقوي جسده وينمي فكره، أو يهيئ له مدرسة أو توجيها، هذا إن كان له أب يحنو عليه، أما إذا فقد من نشأته الأب فسيكون الأمر أدهى وأمر، ولسوف يؤول صاغرا إلى ماسح أحذية، أو وسائل يتخلى عن كل عزة وكرامة، بإراقة ماء وجهه، فإذا ما كتبت له النجاة من كل هذه النكبات وهيئت له الأسباب لأن يجد مقعدا في مدرسة...فكم من العراقيل توضع في طريقه!...ممتحنون بلا انتصاف"[75]، وحكام بلا شفقة، ومستخدمون بلا ضمير...وأخيرا كم يلاقي ذلك الفتى المسلم في سبيل الحصول على وظيفة حقيرة...وإذا ما بلغ مبلغ الرجال ماذا يعمل؟ فالشراء، والبيع، والسفر، والكلام، والكتابة، والتلفون، ومن خلال شبكة دقيقة مسمومة من الأحقاد، تسلبه كل وسيلة

لإقامة حياته، وتنشر من حوله الأفكار المحطمة لقيمته والمعرقلة لمصالحه، فتحيطه بشبكة محكمة ينسجها خبث المستعمر الداهية.

وبديهي أنه في حالته هذه لا سبيل له لأن يقوم بأعماله إلا بالقدر الذي يقدره الاستعمار له، فهو يعيش كأنه يد خفية، وتارة مرئية تشتت معالم طريقه، وتقصي باستمرار أمامه العلامة التي تحدد هدفه فلا يدركه أبدا. نعم، هناك واقع استعماري، وهو ذلك المعامل الاستعماري"[76]. وكيف نتخلص من الاستعمار والقابلية للاستعمار«إن القضية عندنا منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: « أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم» حيث يرى مالك بن نبي أنه يجب دراسة نوايا وأفكار المستعمر"...فنحن نريد أن نبحثه بحثا علميا في بلادنا، ولكي نتبع المقياس الصحيح في درس الاستعمار، يلزمنا أن نراه في أعماق التاريخ، وأن نوسع نطاق البحث فيه، لأنه ليس بالشيء الذي يخص علاقات الجزائر بفرنسا فحسب ولكنه يهم بصفة عامة، علاقات الحضارة الغربية بالإنسانية منذ أربعة قرون."[77].

إن مصطلح القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، يعني ببساطة أن الإنسان المسلم في المرحلة المعاصرة لم يكن ليستعمر لو لم يكن لديه استعدادا لهذا الاستعمار، بمعنى أنه لم يكن مهيئا لمقاومة هذه التحديات التي واجهته وعدم التهيؤ نابع من ضعف جهاز المناعة لدى الشخصية المسلمة في العصر الحديث. وجهاز المناعة يشبهه مالك ابن نبي هنا بقضية البعد العقدي (العقيدة، القيم الأخلاقية، القيم الروحية...)

يرى مالك بن نبي أن مشكلات الإنسان المسلم من داخله وليست من خارجه، على اعتبار أننا إذا استعملنا مصطلح «القابلية للاستعمار» فهو يقربنا، لأنه يتسم بالدقة الشاملة ويمتاز بالعمق، ويمتاز بالواقعية.

يقول الداعية التركي فتح الله كَولن[78] متأثرا بفكرة مالك بن نبي، بحيث يردد نفس العبارة (إحياء الأمة، والقابلية للاستعمار): "إننا كأمة لا بد لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عبرها في مسيرنا. لقد أحاطت بمجتمعنا في ماضينا القريب أحداث مأساوية زعزعتنا، وفتحت عيوننا على العصر في ضباب ودوي صواعق كأنها قيامة حمراء. فكان عسيرا جدا بطبيعة الحال أن نبصر بوضوح ونقاء الغاية والهدف الذي هو(إحياء أمتنا) وأن نستدل على الاتجاه القصير الصائب للوصول إلى ذلك الهدف ......نعم كان عسيرا أو محالا، لكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع في (الانبعاث من جديد) وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية، متزامنا مع هذا الوقت العصيب بعينه، بعدما سيق إلى التضعضع في كل ما هو ذاتي فيه وهيأ ليستلب وجعله "قابلا للاستعمار" وكان هذا أمرا خارقا للعادة، لأن الشعور الفردي كان مهزوزا من الأساس، والشعب كان حائرا ومضطربا في قلب أشد الزلازل وأرهبها، وجموع البشر كانت مقصومة الظهر في مآس مفزعة من أنذر ما في التاريخ."[79]

بـ- إنسان مابعد الموحدين :

حسب نظرية مالك ابن نبي فإن دورة الحضارة تمر بمراحل ثلاث: **مرحلة الروح، ومرحلة العقل، ومرحلة الغريزة،** فقد اعتبر المرحلة الأولى من الحضارة الإسلامية انتهت بمعركة صفين، وانتهت المرحلة الثانية بسقوط دولة الموحدين[80] في المغرب والأندلس، حيث سقطت حضارة لفظت آخر أنفاسها، وما بعدها كان الانحدار والتخلف، " وكل الذين جاؤوا بعد الموحدين لم يستطيعوا منح العالم الإسلامي حركة لم يعد هو يملك مصدرها، فعندما يتوقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، ويفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل وكل الأمراض الاجتماعية التي يعانيها الفرد المسلم في هذا العصر هي من آثار عصر(مابعد الموحدين).

يرى محمد العبدة في كتابه: "مالك ابن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي" أن هذا التقسيم غير دقيق، فلم تكن معركة صفين بداية الانفصال بين الروح القرآنية والحمية الجاهلية كما وصفها،

بينما نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الفئتين بالإيمان عندما قال عن الحسن رضي الله عنه : «إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[81]

وقول مالك أن بداية التخلف كانت بعد سقوط دولة الموحدين."[82] هو قول يحتاج إلى تفصيل، ولا يطلق على سبعة قرون ونصف، فهذا فيه مجازفة وظلم، والأمة الإسلامية أمة متجددة، وهي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره، كما جاء في الحديث، وإذا كانت دولة الموحدين انتهت بنهاية القرن السابع الهجري، فقد شهد القرن الثامن أعلاما شوامخ مثل ابن تيمية، والذهبي، وابن منظور، وابن هشام، وشهد القرن التاسع ، أمير المؤمنين في الحديث، ابن حجر العسقلاني وابن خلدون والمقريزي، نعم كانت دولة الموحدين دولة كبيرة ضمت المغرب الأقصى كله والأندلس، وكان بعض ملوكها على دين وحب للعلم والحضارة رغم أن بدايتها كانت على يد ابن تومرت[83] الذي ادعى المهدوية والعصمة[84]ومزج في الاعتقاد بين الأشعرية والباطنية، ولكن جاء بعدها دولة جمعت أكثر العالم الإسلامي، وهي الإمبراطورية العثمانية، وفي عصرها تم فتح القسطنطينية الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم واستطاعت هذه الدولة حماية المسلمين من الغزو الأوربي لمدة أربعة قرون، نعم غلب عليها الطابع العسكري، وضَعف فيها العلم والإبداع، وخاصة في عصورها المتأخرة، ولكن دولة بهذا الحجم هل تكون صفرا"[85]؟.

ورغم كل هذا فأفكار مالك بن نبي تحتوي على الكثير من عناصر الإبداع الفكري التي تجعله على قدم المساواة مع مفكرين غربيين في فلسفة التاريخ والحضارة،" ولذا فإننا نتفق مع البعض الذي يذهب إلى القول بأن مالك بن نبي هو ابن خلدون القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي"[86] وعلى الرغم من أن مالك بن نبي قد تمثل فلسفات الحضارة الغربية، واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين، فإن ابن خلدون (ت 808هـ) بالذات يضل أستاذه الأول وملهمه."[87]

إن التاريخ الإسلامي يتصف بالاستمرارية، وتاريخ الأمة فيه التوثب والركود، والصعود والهبوط، والاستقامة والتعرج، ولو قال مالك ابن نبي: "إن القرون الأخيرة: ما بعد العاشر الهجري هي فترة تخلف علمي وحضاري لكان أولى، وقد ظهر في القرن الثالث عشر وما بعده علماء مصلحون، وحركات إصلاحية، وحركات قاومت المحتلين"(88).

وعن هذا التوصيف، وهو الزعم بأن العقل العربي توقف عن النشاط والإبداع، فأبرز ما يدحضه توصل الدكتور جورج صليبا في كتاب جديد له صدر بتاريخ عام 1999م. تحت عنوان: " الفكر العلمي: نشأته وتطوره"، إلى نتائج مخالفة لما طرحه مالك بن نبي، لأنه اتبع منهجية جديدة في دراسة العلوم العربية وعلى عدم الانطلاق من نظريات مسبقة...وأن تلك الأحكام التي وصفت مرحلة ما بعد الموحدين بالانحطاط، لم تأت حصيلة دراسة موضوعية للوضع العلمي في تلك المرحلة، لذلك جاءت الأحكام غير علمية وغير دقيقة"(89)؛ لذلك فهو يقترح على من يريد أن يقوم فترة من تاريخنا الحضاري أن يدرس الإنتاج العقلي والعلمي لتلك المرحلة لأحد العلوم، ثم عليه أن يصدر الحكم المناسب حسب النتائج التي يتوصل إليها، ليخلص في النهاية إلى أن مفهومي "عصر الانحطاط" و "القابلية للاستعمار" يحتاجان إلى بحث معمق جديد كما اقترح الدكتور صليبا.. وسنصل إلى نتائج جديدة أكثر صوابا مما طرحه مالك بن نبي.

إن قول مالك بن نبي بانحطاط الأمة منذ عهد الموحدين هو الذي أدى إلى القول ب"القابلية للاستعمار" ، وقد اعتبر مالك بن نبي استعمار بلادنا قدرا محتوما و "ضرورة تاريخية " وهذا كلام غير صحيح، يقول غازي التوبة: "بدليل أن فرنسا التي استعمرت الجزائر عام 1830م. لم تستطع أن تستعمر مصر عندما غزاها نابليون عام 1798م.

وليس معنى ذلك أن الجزائر كانت ذات قابلية للاستعمار في حين أن مصر لم تكن ذات قابلية للاستعمار، فإن النسيج الثقافي واحد في كلا البلدين، لكننا يمكننا أن نفسر نجاحه في الجزائر وفشله في مصر بعوامل خارجية سياسية واقتصادية ساعدت على نجاح الاستعمار في الجزائر ولم تساعده في

مصر، من مثل انشغال الخلافة العثمانية بحرب البلقان حين احتلال فرنسا للجزائر، ومن مثل تردي الوضع الاقتصادي لدى الخلافة مما جعله ينعكس على الإنفاق العسكري بشكل خاص ومستوى العمل العسكري بشكل عام، مقابل تحسن الوضع الاقتصادي لدى أوربا مما ساعدها على زيادة الإنفاق العسكري، ومن مثل كون الجزائر مقابل الحدود الجنوبية لفرنسا"(90)

إذ أنه ليس من شك بأن الأفعال الاستعمارية من اقتلاع وتدمير وتغيير وتغريب؛ كانت لها الآثار السلبية والتخريبية على المجتمع والإنسان في مختلف الأبعاد النفسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية.

خـــاتمة:

كل باحث منصف يقرأ لمالك بن نبي بدقة وشمولية، ويجمع بين كل أفكاره الواردة هنا وهناك، وكل جوانب فكره، يتوصل إلى أنه كان مفكرا إسلاميا يؤمن بتطور الحياة وتجددنا في إطار السنن الكونية، لأنه كان يطلب الحقيقة وينشدها، حيث كان ينطلق دائما من المفهوم الإسلامي للإنسان والكون، وينظر إلى ذراته وأجزائه المتفرقة نظرة موحدة، ويربط بينها ربطا موحدا، حيث أنه يرفض الأسس الثقافية الناتجة عن الفلسفات المادية الجاحدة في الحضارة الغربية وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اطلاع وموسوعية الرجل، لأن بعض المفكرين تذهب أفكارهم بذهابهم، لأنها تعالج حالة معينة في زمن محدود، ولكن آراء وأفكار مالك بن نبي ما تزال حية، لها مؤيدوها ومعارضوها، ذلك لأنه درس بعمق بعض أسباب تخلف العالم الإسلامي، ولم يدرس حالة بعينها. درس العالم الغربي والعالم الإسلامي، وهو يعيش في بؤرة الصراع مع الغرب.

فمالك بن نبي منظر بامتياز لمشكلة الإنسان العالمي، وليس الإنسان العربي المسلم فقط، وكذلك إخلاصه في معالجة مشاكل العالم الإسلامي والأجيال الحاضرة، لذلك يمكن اعتبار نظريته الفلسفية الواقعية حلا فاصلا، بدلا من الفلسفات المادية والعقلانية، بل حتى الفلسفات الوجودية التي تزعمت النزعة الإنسانية، كما يمكن اعتبارها ردا بناءا على الفلسفات المعاصرة

أمثال: (فرويد ، ماركس، ...وغيرهم)، حيث احترم إرادة الإنسان ونظر إليها نظرة قرآنية وسطية بين المذاهب الفلسفية، التي تلغي هذه الإرادة تماما، أو تضخمها حتى تتحدى الضرورات القدرية البشرية والكونية الصامدة.

فقد حاول في مؤلفاته أن يقدم التبرير التاريخي والنقدي لوجهة الحضارة الإسلامية، ويعتبر أن هذه الصياغة هي التي تكشف عن أصول فلسفته حول الحضارة، من خلال التعرف على القوانين التي تحكم الاطراد الحضاري، محاولا استجلاءها من الأصول الإسلامية: قرآنا وسنة، وهنا ينبثق في رأيه حل إشكالية التخلف الحضاري عند المسلم المعاصر، فعلى المسلم ألا يتعامل مع العصر بمنطق يتجاوز فيه ذاتيته الفكرية والثقافية، وبذلك يسهم في دفع الارتداد الحضاري، ويحقق شروط الإقلاع والنهوض.

فقد كان رحمه الله صاحب منهج، له أدواته التحليلية الخاصة به، والتي أبدعها ووظف العديد من المصطلحات التي نمت في حقل علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التاريخ، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع الديني، فقد حاول تخليص هذه المصطلحات من خلفياتها الفلسفية، وفك الارتباط بينها وبين مجالها الدلالي الغربي، وإعطائها مجالا دلاليا يرتبط بمنظوره الحضاري ومرجعيته الإسلامية. لذلك نجده قد برز على من سبقه من مجددي العصور الإسلامية وتفوق عليهم من حيث انفتاحه على العصر.

الهوامش :

(1) – يقول الباحث الاجتماعي مصطفى التير (معروف بكتاباته عن العنف): « قد لا نبالغ إذا قلنا: إن القرن العشرين هو القرن الذي عرف فيه الإنسان أعنف مظاهر العنف وأشدها تدميرا، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو البيئة.فهو القرن الذي عرفت فيه البشرية أقوى الحروب تدميرا وأكثر أشكال العنف تنوعا. وهو القرن الذي شهد أكبر قدر من التطور العلمي وتوظيفاته التكنولوجية، والتي هي بدورها اشتغلت في مجال العنف لتجعله أشد ضراوة. وهو أيضا القرن الذي اهتم فيه أكبر عدد من الباحثين بالتعرض لقضية العنف». – "ظاهرة العنف وعنف الظاهرة" لمصطفى عمر التير. – مجلة الفكر العربي – العددان: 85 – 86. / السنة 1996م.

(2) – محمد المبارك (1912 – 1982م.) مفكر وداعية سوري، يعد من مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، تأثر كثيرا بابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية. من أهم مؤلفاته: "نظرة الإسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة" – "الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية" – "جذور الأزمة في المجتمع الإسلامي". – ترجمته في: محمد المبارك العالم والمفكر والداعية لحسن أدهم جرار. و موسوعة السياسة لعبد الوهاب الكيالي ص 100.

(3) – أبو الأعلى المودودي (1903 – 1979م.) يعد أحد منظري دولة باكستان، وأحد أعضاء الجماعة الإسلامية التي تأسست سنة 1941م. حيث انتخب المودودي أميرا لها، والتي نادت بإقامة نظام إسلامي في باكستان المستقلة، إذ لم يعد هناك مانع من إلغاء القوانين الوضعية الموروثة عن بريطانيا، والتزام باكستان حكومة وشعبا في قوانينها ومعاملاتها بالحدود التي وضعتها الشريعة الإسلامية على أن يسير هذه الدولة دستور يرتكز على الحاكمية لله وحده. ويعتبر الشهيد سيد قطب من أكثر المفكرين تحمسا لآراء المودودي، وقد نقل عنه كثيرا في كتاباته. – أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية لمحمد عمارة ص 27 .

(4) – أديب وشاعر وزعيم سياسي مغربي (1910ـ 1974م.) أحد كبار رجالات الحركة الوطنية بالمغرب، تعرض للنفي والاعتقال من طرف الحماية الفرنسية، حيث وقف ضد الظهير البربري سنة 1930م. الذي كان يحاول أن يفصل العرب عن البربر في المغرب من الناحية الدينية والقضائية والإدارية حيث كان صوت المغرب في المشرق، وخاصة في فترة التعريف بالمغرب وقضية استقلاله، أواخر الأربعينيات وإلى منتصف الخمسينيات، من القرن العشرين ترجمته في: – علال الفاسي نبذة موجزة عن حياته وفكره، منشورات مؤسسة علال الفاسي 2010م. – علال الفاسي عالما ومفكرا لأحمد الريسوني ص 22 .

(5) – علال الفاسي "النقد الذاتي" ص 56 .

(6) – نفس المصدر والصفحة.

(7) – علال الفاسي "حديث المغرب في المشرق" ص 4.

(8) – برناردي لازار "مناهضة السامية تاريخها وأسبابها" ص 14.

(9) – بديع الزمان النورسي "كليات رسائل النور" (الكلمات) ص 855 .

(10)The development of metaphysics in Persia page. 66 Mohamed Iqbal. Lansing.Mi.H-Bahai. 2001first published London 1908.

(11) – تفاصيل هذه الملاحظات في كتاب : " أفول الغرب " للمفكر المغربي حسن أوريد، وهو قراءة نقدية لقوة تغرب شمسها، ويتضمن الكتاب تأملات نقدية في واقع الأزمة التي يعيشها الغرب حاليا، على اعتبار أن أزمات العالم العربي المستعرة إنما هي انعكاس لأزمة الغرب، محذرا بذلك من تداعياتها على راهن ومستقبل العالم العربي، بالنظر إلى ارتباط نخبه وبنياته السياسية والاقتصادية بالمركز الغربي.

(12) – أسوالد شبنجلر "تدهور الحضارة الغربية" ترجمة أحمد الشسباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان.

(13) – ألدوس ليونارد هكسلي (1894 – 1963م.) أديب ومفكر إنجليزي، صاحب الفلسفة الخالدة، اشتهر بقصصه ورواياته التي وصف فيها المجتمع الإنجليزي المعاصر، ساخرا من معظم عاداته وتقاليده الاجتماعية، تأثر كثيرا بأحداث الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918م) حيث يقول: «شهد العالم حربا ضروسا سقط فيها القتلى ودمرت فيها الكثير من المنشآت الحضارية بسبب رغبة بعض الحكومات في السيطرة والهيمنة وفرض النفوذ». – "عالم رائع جديد" لألدوس هكسلي ص7 – 8 .

(14)- نفس المصدر ص9 – 10 .

(15) – مالك بن نبي "تأملات" ص 42.

(16) – سادت النظرة العرقية الاستعلائية في أوربا في القرن التاسع عشر، والتي كانت تعتبر أوربا- باعتبارها وارثة الحضارتين اليونانية والرومانية – المركز الأوحد للثقافة والحضارة، وهذه النظرة المركزية هي التي حملت الأوربيين عامة على الاستهانة بتراث الآخرين، بل والتفنن في سحق ومحق ثقافات الأمم الأخرى. – تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية (الفصل الأول) لمصطفى عبد الرزاق القاهرة 1959م.

(17)- عبد القادر طاش "أزمة الحضارة الغربية والبديل الإسلامي" ص 15 – 16.

(18) - أوسفالد شبينجلر"تدهور الحضارة الغربية" ج1/ 61 . – عوامل تدهور الحضارة الغربية، دراسة تاريخية سوسيولوجية تحليلية في ضوء نظرية الفيلسوف الألماني (أوسفالد شبنجلر) لفاطمة الطراونة، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 43 ملحق 3 ، 2016م.

(19) – إن المفهوم اليهودي السائد عن فكرة شعب الله المختار، هو مفهوم سياسي محض ابتكره الحاخامات لحض اليهود على السعي الدؤوب للسيطرة على العالم كما زعموا، حيث هذا الشعار أساس الديانة الحاخامية التلمودية، لأن اليهود يأخذون بتعاليم التلمود كدستور لهم في الحياة. – الخديعة الكبرى، هل اليهود حقا شعب الله المختار"؟ لمحمد جمال طحان ص 25.

(20) – مصطفى النشار "في فلسفة الحضارة " ص 13. – أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية لمحمد عمارة ص 130.

(21) – فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج لمالك بن نبي ص 41 – 42.

(22) – لقاء مع الدكتور سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، بقناة المجد الفضائية، عام 2009م. صفحة الدكتور سليمان الخطيب: www.youtube.com/Solimanalkhateeb.

(23) – مالك بن نبي "وجهة العالم الإسلامي" ص 62.

(24) – نفس المرجع ص 113.

(25) – نفس المرجع ص 62.

(26) – فهمي جدعان "أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث" ص 14.

(27) – إيريش فروم "كينونة الإنسان" ص 24.

(28) – علم اللاهوت (Theology) هو علم دراسة الإلهيات دراسة منطقية، وقد اعتمد علماء اللاهوت على التحليل العقلاني لفهم المسيحية بشكل أوضح، لكي يقارنوا بينها وبين الأديان أو التقاليد الأخرى، وللدفاع عنها في مواجهة النقد ولتسهيل الإصلاح المسيحي، وللمساعدة في نشر المسيحية.

(29)- تفصيل هذه الملاحظات في كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج" لوليام غاي كار .

(30)-تفصيل هذه الملاحظات في كتاب "جاهلية القرن العشرين" لمحمد قطب .وكذلك – لماذا أسلمت؟ لروجي جارودي ص16 – 17.

(31) -محسن عبد الحميد "النورسي متكلم العصر الحديث". ص62 – 63.

(32) - «العقد الاجتماعي » أو « مبادئ الحقوق السياسية » عبارة عن اتفاق مجموعة من الأفراد فيما بينهم لتكوين مجتمع بناء على قاعدة الفائدة المتبادلة وتجنب الأضرار، مقابل تسليم الفرد لإرادة الجماعة، ممثلة بالسلطة، حيث شغلت هذه النظرية أذهان الفلاسفة والمفكرين،

فكتب عنها الكثيرون، ويعد « جان جاك روسو» أبرز الباحثين في مجال «العقد الاجتماعي » لما تتصف به آراؤه من ثورية جعلته خير معبر عن مشاكل فرنسا السياسية والاجتماعية في فترة ما قبل الثورة الفرنسية. - مقدمة كتاب "العقد الاجتماعي" لجان جاك روسو، ترجمة عادل عمر زعيتر.

(33) – نفس المصدر ص 10.

(34)- مالك بن نبي "في مهب المعركة: إرهاصات الثورة ص 162.

(35) - ألكسيس كاريل (1873 – 1944م.) طبيب فرنسي، عرف بأبحاثه الطبية الكبيرة المتعلقة بالقلب الميكانيكي، حصل على جائزة نوبل عام 1912م. عن أبحاثه الطبية. حيث دعا إلى الاهتمام بعلم الإنسان، والعمل على بناء كل العلوم والمناهج والنظريات على طبيعته.- مقدمة كتاب: "الإنسان ذلك المجهول" لألكسيس كاريل، تعريب: سفيان أسعد فريد.

(36) يعتبر كتاب "الإنسان ذلك المجهول" لمؤلفه الطبيب الفرنسي ألكسيس كاريل بمثابة ثورة على فروع العلوم المختلفة (طب، اقتصاد، سياسة واجتماع،..) التي كانت إحدى ثمار عهد الحداثة الأوربية، فهذه العلوم رغم أنها ساعدت في تقدم الإنسانية ومعرفة ما هو مجهول من الاكتشافات والابتكارات التي هزت الدنيا وغيرت محتواها حتى وصل الإنسان مبلغا لم يكتف فيه بالوصول إلى الغاية الكبرى في الأرض، لكنه أراد أن يبلغ بعلمه وفكره ورؤيته إلى كواكب أخرى، مع كل ذلك لكنها فشلت في تحقيق الأمن والطمأنينة والسعادة للإنسان في حياته.تفصيل هذه الملاحظات في كتاب: "الإنسان ذلك المجهول".

(37)"الإنسان ذلك المجهول" ص 12 (مرجع سابق).

(38) محد جمال الدين القاسمي، "دلائل التوحيد" ص131 – 132.

(39) "شروط النهضة" ص 60. (مرجع سابق)

(40) غازي التوبة "الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم" ص 78 .

(41) وجهة العالم الإسلامي ص 198.

(42) سورة البقرة الآية 30.

(43) – إن « ظاهرة التدين » أصيلة مركوزة في فطرة الإنسان، سواء كان ذلك في المدينة أو في القبيلة، في الصحاري أو في الغابات، وهي التي أنتجت الحضارات، وبسببها ازدهرت الجامعات، بل إن قوانين الأمم الأوربية لاهوتية في أساسها، وكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان فإنه يجد سطورا من الفكرة الدينية. – مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية" ص 75 .ترجمة عبد الصبور شاهين، دار القرآن الكريم للعناية بطبعه ونشر علومه، 1398هـ/ 1978م. – "وقفات حول أهم الأديان الوضعية القديمة في العالم" لمحمد حسن مهدي بخيت ص 76.

(44)- مدخل إلى دراسة الحضارة الإسلامية ص43 (مرجع سابق).

(45) - مراد ولفريد هوفمان ألماني مسلم، كانت أول معرفته بالإسلام في الجزائر يوم 28 مايو 1962م. حين رأى صمود وصلابة المجاهدين الجزائريين، ولم يفهم من أين يأتيهم هذا الدعم الخفي، حتى قرأ القرآن، وكانت خبرته كدبلوماسي وكزائر لدول إسلامية مختلفة حافزا له على أن يعكف على دراسة القرآن الكريم، وأيقن على مر السنين أن اعتناق الإسلام هو النتيجة المنطقية الوحيدة لبحثه عن الحقيقة النهائية للحياة، واختار لنفسه اسم مراد الذي يعني «المبتغى» ، وبمعناه الواسع «الهدف». تطرق في كتابه: «الإسلام كبديل» إلى جميع المواضيع الحساسة؛ لإزالة الحواجز وتبديد صورة (الإسلام – العدو) التي فبركها وسوقها الغرب الأوربي عبر العصور، حيث تكمن أهمية

الكتاب إلى بيان وإدراك الأبعاد الحقيقية – القريبة – للدين الإسلامي الذي يملي ويوجه حياة أكثر من مليار مسلم دون أن يهمل واقع وجود التباين غير المتناهي بين الشرق والغرب (الأوربي والأمريكي بشكل خاص). – مقدمة كتاب "الإسلام كبديل " لمراد هوفمان.

(46) – نفس الصدر ص83.

(47) – عبد المجيد عمر النجار "فقه التدين فهما وتنزيلا" ص9.

(48) – أبو إسحاق الشاطبي "الموافقات في أصول الفقه" ج2/ 179.

(49) – محمد أبو زهرة "الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي" ص 37 – 67 .

(50) – العز بن عبد السلام "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" للعز بن عبد السلام ج1/ 11.

(51) – داخل الحضارة الإسلامية مازال الجدل متواصلا في العالم الإسلامي منذ القرن الثامن عشر الميلادي حول ما إذا كان الإسلام الحضاري يوفر نظرية ونظاما مفصلا للحياة صالحا لكل زمان ومكان ويغطي مناحي نشاط المجتمع أم أنه يوفر إطارا شاملا من القيم والمبادئ العامة والتقليل من الأحكام المحددة بها يجعله عمليا صالحا لكل زمان ومكان.- "حوار الحضارات" لوليد محمود عبد الناصر، ص 16 .

(52) – مالك بن نبي "شروط النهضة" ص 75 .

(53) – عبد الله بن حمد العويسي "مالك بن نبي حياته وفكره" ص 18 – 19.

(54) – فرانسيس فوكوياما "نهاية الإنسان عواقب الثورة" ص159.

(55) – محمد هاشم البشير "العلم الحديث، أزمة معرفة أم أزمة قيم"؟ لمحمد هاشم البشير ص. 34 – مجلة حراء العدد 47 السنة 2015م.

(56) – مالك بن نبي "آفاق جزائرية " ص 68.

(57) – شوقي خليل "الحضارة العربية الإسلامية" ص17.

(58) – "آفاق جزائرية" ص 46 .

(59) – ابن خلدون "القدمة" ص 142.

(60) – عماد الدين خليل "التفسير الإسلامي للتاريخ" ص 174 – 176 – 177 – عفت الشرقاوي "في فلسفة الحضارة الإسلامية" ص15.

(61) – نفس المصدر ص.15– 16 – قصة الحضارة لـ ول ديونارت ج1/ 3.

(62)– السخاوي "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ" ص7.

(63) – مالك بن نبي "تأملات" ص. 164

(64) – مالك ابن نبي "ميلاد مجتمع" ص13.

(65) – مالك بن نبي "فكرة الإفريقية والآسيوية" ص75– 38.

(66) – يقول المفكر الإسلامي « سيد قطب» "لقد كنت أعلنت عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان: « نحو مجتمع إسلامي متحضر»، ثم عدت في الإعلان التالي فحذفت كلمة « متحضر» مكتفيا بأن يكون عنوان البحث – كما هو موضوعه – على أنه ناشئ عن «عملية دفاع

نفسية داخلية عن الإسلام»، وآسف، لأن هذه العملية – غير الواعية – تحرمني مواجهة المشكلة على حقيقتها. – معالم في الطريق لسيد قطب ص 117.

(67) – مالك بن نبي "فكرة الإفريقية والآسيوية" ص228 – 229.

(68) – سليمان الخطيب "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي" ص50 –51.

(69) – نفس المصدر والصفحة.

(70) – فكرة الأفريقية الآسيوية. ص 338 – 339.

(71) – مذكرات ص221 دار الفكر – دمشق، 1984م.

(72) – تنوعت وتقاطعت وجهات النظر حول مصطلح القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، فمن قال إنها نظرية على درجة كبيرة من الإبداع والصواب. إلى قائل إنها نظرية خطيرة وحساسة، لأنها تختزل في مضامينها مبررات الاستعمار وتوفر له الشرعية. وعلى رأي آخر أن هذه النظرية كانت المرتكز لوقوع صاحبه في كثير من الأخطاء الفكرية – حسب رأيه – للاستعمار ولذهنيته، فهو يقول: «وقع مالك في خطأ فكري نتج عن تحريك القابلية للاستعمار لذهنيته» وفي مقطع آخر: «حركت فكرة القابلية للاستعمار وذهنية مالك، فجعلته يقع في أخطاء فادحة» – الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم لغازي التوبة ص 78.

(73) – مالك بن نبي "في مهب المعركة" ص.134.

(74) – الفكر الإسلامي المعاصر لغازي التوبة ص .146.

(75) – كان هم مالك بن نبي أن ينتسب لمعهد الدراسات الشرقية ليكمل بعدها دراسة الحقوق كما يرغب والده، حيث تقدم للمعهد، ولم يكن اختبار القبول صعبا، وثقافته تؤهله للنجاح، ولكنه – مع خيبة الأمل – لم ينجح، وليس هذا كل ما في الأمر، بل أشعره المدير (الوقور) بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده، واكتشف مالك (أن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع – بالنسبة لمسلم جزائري – لمقياس علمي، وإنما لمقياس سياسي) – "مذكرات شاهد للقرن" ص 216.

(76) – جودة سعيد"مالك بن نبي ومشكلات الحضارة" دراسة تحليلية ونقدية لزكي ميلاد تقديم جودت سعيد ص89 – 90. – الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم لغازي التوبة ص 146.

(77) – شروط النهضة ص 148.

(78) – فتح الله كَولن أحد أشهر الدعاة المصلحين المعاصرين على مستوى العالم، صاحب مشروع الخدمة، الذي نال المرتبة الأولى في قائمة "أهم مائة مثقف معاصر في العالم" بحسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته في صيف 2008، مجلة السياسة الخارجية الأمريكية: (Forgien Policy) بالتعاون مع مجلة (Prospect) البريطانية. – ثم جاء الفتح لفريد الأنصاري، موقع فتح الله كَولن (Fgulen.Com) صفحة الدراسات – الخدمة في خدمة عالمية الإسلام، لإبراهيم البيومي غانم، مجلة حراء، العدد 42 ماي 2014م.

(79) – ونحن نبني حضارتنا لفتح الله كولن ص. 10 ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو.

(80) – المشروع الموحدي كان يرمي في أصله إلى تحقيق الوحدة السياسية بين أقطار الشمال الإفريقي، ثم تأسيس الوحدة السياسية على وحدة فكرية قاعدتها المذهب السني الذي سبق ليعقوب المنصور الموحدي أن حاول إصلاحه وإعادة تأسيسه كي يستجيب إلى مطلب الوحدة السياسية المرغوب فيها وفي توسيع قاعدتها...وقد أتى هذا المشروع الموحدي الكبير في ظرف دقيق عرف فيه الجناح الشرقي للعالم الإسلامي تمزقا سياسيا، كما عرفت مصر والشام ضغوط الحروب الصليبية المتكررة، غير أن المشرق عرف من الناحية الفكرية تراجعا

للمذهب الشيعي الإسماعيلي، الذي سبق أن تحالف في فترة زمنية مع الصليبيين والذي عرف نهاية لدولته الحامية، الدولة الفاطمية، حيث استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحتمي بالفكر السني، ويحول الأزهر إلى قلعة لهذا الفكر، ويوظف ذلك لأجل تحقيق وحدة سياسية، خاصة في مواجهة الخطر الصليبي، قبل الاستعداد لمواجهة الخطر التتري.– "تجليات الفكر المغربي المعاصر" لعبد المجيد الصغير، ص177.

(81) – محمد بن إسماعيل البخاري "صحيح البخاري" كتاب الصلح ج2/ 822حديث رقم 2704 المكتبة العصرية 1426هـ/ 2005م.

(82) - كانت دولة الموحدين، حقا أعظم دولة عرفتها شمال إفريقيا، بل الغرب الإسلامي، حيث امتدت سلطتها، أيام عزها، من المحيط الأطلسي غربا إلى حدود مصر شرقا، ومن الصحراء الكبرى جنوبا إلى سفوح جبال البرانس (Pyrénées) بإسبانيا شمالا. وانتعشت في ظلها الحياة الاقتصادية وهدأت الاضطرابات الاقتصادية، وازدهرت الثقافة العربية الإسلامية، ويكفي أن نشير هنا إلى أنها الدولة التي احتضنت ابن طفيل وابن رشد وغيرهما من كبار العلماء والمفكرين في الغرب الإسلامي. – فكر ابن خلدون، العصبية والدولة (معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي) لمحمد عابد الجابري ص. 21.

(83) – - "أعز ما يطلب" تأليف المهدي بن تومرت ص 25 – 297 .

(84) – من بين الصفات التي استبدت بفكر ابن تومرت صفة العصمة، وهي من المبادئ الشيعية وعلى أساس أن العصمة مطلقة لا تقبل أن تكون محمل نقاش أو دحض أو اعتراض، وهي من الصفات اللازمة في الأئمة لا بد أن تتوفر فيهم، فهم معصومون من الخطأ والضلال والكذب والبدع والباطل. –أعز مايطلب لابن تومرت ص 25 - 297 .

(85)– التاريخ السياسي من الإمبراطورية الموحدية لـ Ambrosio Huici Miranda .

(86)– " نحو مفهوم جديد للحضارة عند مالك بن نبي" مقال لأحمد محمد سالم البريري، مجلة الفكر العربي، العدد 76.

(87) – " أسس التقدم عند مفكري الإسلام" ص 14 (مرجع سابق)

(88) – محمد العبدة "مالك ابن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي" لمحمد العبدة ص 84 – 85 دار القلم، دمشق الطبعة الأولى 1427هـ/ 2006م. – رؤى وآراء معاصرة، دراسة نقدية لغازي التوبة ص 105 – 106 .

(89) – رؤى وآراء معاصرة، دراسة وتقويم لغازي التوبة ص 105 – 106.

(90) – نفس المصدر ص. 108 .